

بين الصورة والحقيقة

« الجسد بلا روح جاد لا ينفع ، والصورة بلا حقيقتها وهم وخداع . أو ظل لا ينفى ولا يفيد . وفي الأرض حقائق صغيرة تناع في صور كبيرة . ومن الواجب ان تسودها حقيقة الاسلام الكبرى . ونحن اليوم في زمن لنا فيه رسوم الاسلام واشكاله واقواله ولكن ليس فيها حقيقته ولا روحه . وما اكثر ما نعلمه او نعتقد . وما اقل ما نستجيب له او نقف فيه ! . . . »

يا مسلمة اليوم . ضلوا الاسلام من الداخل لامن الخارج . اجملوه في القلوب والقول والمزائم . لاني الصور والمظاهر . ويومئذ تفرحون بنصر الله على الكبير »

الصرياحى

بين الصورة والحقيقة

إن كل شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرق كبير رغم الشبه العظيم ، يتميزون بينهما بسهولة في حياتكم وتعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة ، وأضرب لذلك مثلين : هذه مثل الثمار مصنوعة من الخرف تتأني للنظر كأنها تفاح ورماد وبرقال وعنب وموز في لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة وأين طعم هذه الثمار ورائحتها ؟ إنها ليست إلا للزينة أو المماثل

إنكم ترون في المتحف كل نوع من السباع والأنعام والطيور الجميلة والعصافير الصغيرة ، ففيها الأسد والذئب والأفيال والدباب ، وفيها كل طائر جارح وكل سبع مخيف ، ولكنها جثث هامة لأحراكها وأجساد مبنية بحشوة باليف والقطن ليس فيها رفق من حياة وقوة تهجم بها وتصلو حتى لا تحس منها من أحد ولا تسمع لها دكرا .

إن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتتوب عنها ، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة في الحياة وتأتي بما تأتي به من عمل ونشاط ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافئها فإذا وقع صراع بينهما انهارت الصورة ، ولا يمكنها أن تحتل عب. الحقيقة ، فإذا وكل أحد إلى الصورة وظيفة الحقيقة أو عول عليها في مهمة خات الصورة وخذلكه أحوج ما يكون إليها .

والصورة ولو كانت مهمة هائلة ، تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة ، لأن الحقيقة الخفية أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة : وإن الولد يقدر أن يسقط الأسد الميت المحشو باليف والقطن يده الضعيفة الناحلة لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة ، والأسد ليس إلا صورة ولو كانت صورة مهمة .

إن هذا العالم الذي نعيش فيه ؟ عالم الحقيقة والأمر الواقع . وقد خلق الله كل شيء على حقيقة ، فللحال حقيقة وجهه فطري طبيعي ، ولأجل ذلك وردت عنه الأحكام ووضع الله فيه التأثير والجذب ، وللأولاد حقيقة والخائفان

إليهم وحسبهم فطرى ولأجل ذلك وردت الأحكام في الشرع عن تربيتهم وتعليمهم ، وكذلك للحاجات الطبيعية والميول الفطرية حقيقة لا يتحدد . ولا تغلب تلك الحقائق إلا حقيقة أقوى ورغبة أعظم وأشد .

إننا نحتاج إلى حقيقة الاسلام والايمان للظفر على الحقائق المبثوثة في العالم . أما صورة الاسلام فهي عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها وإن كانت حقائق مزوجة بالباطل لأن الصورة المجردة لا تنتصر على أى حقيقة . ولذلك نرى اليوم بأعيننا أن صورة الاسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة ، لأن الصورة ولو كان ظاهرها مقدسا رائعا ليس لها سلطان وتأثير وإن صورة اسلامنا وصورة كلمتنا وصلاتنا اليوم لا تقدر ان تغلب على عاداتنا الحقيرة وتقهر شهواتنا وتثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان .

إن الكلمة التي كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب والارواح وكانت تهون على الناس ترك المألوفات وقهر الشهوات والشهادة في سبيل الله وبذلك الارواح والانس لله واحتمال المسكاراة وتجرع المرار في سبيل الدين هاهي الآن عاجزة عن ان تحمل الناس على ترك فرشهم بعد ان استغرقوا في النوم طول الليل ويقوموا لصلاة الفجر ! نعم ، الكلمة التي كانت تغلب على شهوة الخمر فتحول بين الانسان وبين الكأس وهي على راحته فيمتنع من شربها لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأتي عليه ان يقرب الحرام ، هاهي الآن قد أصبحت لا تملك امرا ولا نهيًا !

سرح طرفك في تاريخ الاسلام وتجهول في فصوله وأوراقه يظهر لك ان كلمة الاسلام التي كان الصحابة وكان المسلمون في القرون الاولى يتلفظون بها كانت ذات حقيقة ثابتة وكانت كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . وكلمتنا نحن الفاظ مجردة ونطق فارغ ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها في حياة الامة ، ثم إننا مع ذلك نحاول ان نطبق حياة اصحاب النبي ﷺ على حياتنا ونرجو ان تؤتي هذه الكلمة أكلها كل حين وتحدث ما احدثت في الماضي حتى إذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تسائلنا وقلنا : السنا مسلمين ؟ السنا غصلي ونصوم ؟ الا نتلفظ بكلمة : الاسلام وزددها صباحا ومساء ؟ فلماذا هذا

الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين ، ولماذا هذا البون الشاسع بين
حظنا وظلمهم ؟ وابن ثمرات شجرة الايمان ، وابن تناجح الصلاة والصيام ، وابن
ما وعد الله من النصر المبين والاستخلاف والتسكين ؟

لانتقدعنا انفسنا ولنعلم انهم كانوا اصحاب جد وحقيقة الدين . لقد كانت
كلمتهم حقيقة ، وكانت صلاتهم حقيقة ، ونحن منجردون عن هذه الحقائق فرجاء
أن تشر الصورة ما أثمرت الحقيقة وتغنى غناها . إنما هو وهم خيال وضرب من المحال .
أما قرأتم في التاريخ أن خبيبا رضى الله عنه وقعه على الحشبه وتناولوه
بالرماح والأسنة حتى تترك جسمه وهو قائم لا يشكو ولا يتنفس ؟ أنحب أن
يكون محمد ﷺ مكانك ؟ فيضرب ويقول : والله لأحب أن يفديني بشوكة
بشاكها في قدمه !

يا أبناء الاسلام ! ان الذى ثبت في هذا المكان وأهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة
العريضة في حب الرسول هل هي صورة الاسلام ؟ لا بل هي الحقيقة التي مثلت بين
عينيه الجنة والراح قوشه وتعبت بجسمه وناجته وقالت : صبرا ، يا خبيب ؟ فله
هي إلا لحات ونران ، وهامى الجن تنظرك ورحمة الله ترتقبك فإذا احتملت الآم
هذا الجسد الفاني والحياة الزائلة العابرة تلك السعادة الدائمة والحياة الباقية .

هذه هي اللذة الروحية وحقيقة الحب والايمان التي أبت على خبيب أن يطلق
ويؤذى رسول الله ﷺ بشوكة في قدمه . قل تستطيع الصورة أن تحمل صاحبها
على هذا الاخلاص والتفاني والنيات على العقيدة والصبر على الموت ؟ كلا ! إنه
الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام بل حتى الخيالات والأوهام . وقد
بدا لنا ذلك في الاضطرابات الطائفية الماضية في الهند فان أناسا من المسلمين قد
غيموا صورة الاسلام خوفا مما مر بخاطرهم من الفزع وخشية الموت وما دار في
رؤسهم من معارك خيالية حامية واختاروا شعار الكفر وذلك لأن هؤلاء الناس
قد كانوا متحليين بالصورة فارغين عن الحقيقة .

هاجر سيدنا صيب رضى الله عنه فلما كان في الطريق اعترضته جماعة من مشركي
مكة وقالوا له : أتيتنا صلوكا حثرا فكفر بالله عندنا وبلغت الذي بلغت ثم تريد

ك أن نخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركة بين حقيقة الاسلام وحقيقة المال ودارت بينهما رحى الحرب فانتصرت حقيقة الاسلام على ضدها وقال لهم صيب : أأريتم إن جعلت لكم مالى أنخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال : فإني قد جعلت لكم مالى (١) ، وهكذا انطلق صيب بدبته متجردا من ماله فرحا مسرورا كأنه لم يفقد شيئا ولم يخسر شيئا .

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجته وابنه يربد المدينة فلما رآته رجال من بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه علام تتركك تسير بها فى البلاد ، ونزعوا خطام البعير من بده وأخذوها منه وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير ، هناك اصطدمت حقيقة الاسلام بحب الزوج والولد فلما لبثت أن انتصرت عليه ، وغادر أبو سلمة زوجته وولده تحت رعاية الله وهاجر وحيدا . هل الصورة تستطيع ذلك ؟ ؟ وهل يقدر أصحابها على ترك الزوجات والأولاد فى سبيل العقيدة والدين ؟ كلا ، بل سمعنا أن أناسا قد ارتدوا عن دينهم لئال والأزواج والأولاد وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها .

كان أبو طلحة مقبلا على صلاته فإذا طائر يدخل فى بستانه ثم لا تجد الطريق للخروج ويميل إليه قلب أبى طلحة ، فلما انصرف من صلاته تصدق بهذا البستان ، لأنه لا يحب أن يشغله شيء عن حقيقة صلاته وينازع قلبه !

إن للبستان حقيقة وثمره وأكله حقيقة ولا تغلب هذه الحقائق الاحقيقة الاسلام . وإن صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة ولذلك لا تقدر أن تقاوم أدنى الحقائق المادية . لقد كان فى حرب يرموك بضعة آلاف من المسلمين وأما الروم فقد كان عددهم يبلغ الى خمس مائة ألف أو يزيدون ، فإذا نصرانى كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فيقول خالد رضى الله عنه : والله لو ددت أن الأشقر برأمن توجهه وانهم اضعفوا فى العدد (٢) .

بم كان خالد رضى الله عنه مطمئنا . ولم لم يشغل خاطره .

١ — سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٢١

٢ — الأشقر فرس خالد وكان قد حفا واشتكى من مجبته من المراق (البداية والنهاية ج ٥ ص ٩) .

هذا العدد الهائل ولم لم تكبر في عينه جنود الروم الكثيفة ؟ ذلك لأنه كان مؤمنا بالله واتقا بنصره ، ولأنه كان يعلم انه على الحقيقة ، وان مقابله صورة خيب ، وان الروم صورة فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد ان الصورة مهما كثرت لا تقدر ان تقاوم حقيقة الاسلام .

لا شك اننا نلتفظ بكلمة الشهادة والتوحيد ومنا من يعرف مايقول ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر . ان اصحاب النبي ﷺ والمسلمين الصادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة فاذا قالوا : لا اله الا الله اعتقدوا أنه لا اله غيره ولا رب غيره ولا رازق غيره ولا نافع ولا ضار الا هو له الملك والحكم والخلق والامر ويده ملكوت كل شيء . يجير ولا يجار عليه وأخلصوا له الحب والخوف والسؤال والرجاء والعبادة والدعاء واصبحوا عبادا خفيا شجعان اقوياء لا يهابون العدو ولا يخافون الموت ولا يبالون بلومة لائم .

نرجع إلى أنفسنا ونفكر هل هذه الحقيقة متغلغلة في أحشائنا ومتسربة في عروقنا وشراييننا وهل غرس حياتنا يسقى بهذا الماء معذرة وعفوا أيها القراء اننا نخاف أن لا يكون الامر كذلك وأن نصيب الصورة في حياتنا أكثر من أن نصيب الحقيقة وذلك موضع الضعف في حياتنا وسر شفاتنا ومصائبنا .

اننا جميعا نؤمن أن الآخرة حق والجنة حق والنار حق والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل اننا حاملون للحقيقة الايمان كأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان ، وقد سمعنا أن أحدهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قوموا إلى جنة عرضها السموات والارض . فرمى بما معه من الفم وقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه انها لحياة طويلة وقاتلهم حتى قتل ، لأن الجنة كانت عنده حقيقة لا يشك فيها . فمن أين يقول كأنس بن النضر إني لأجد ربح الجنة من دون أحد .

أتى رجل من المسلمين يوم اليرموك وقال للامير : إني قد تهيأت لأمرى

قل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال . نعم اتقرنه على السلام وتقول : يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا

فيقول هذا إلا من يوقن أنه مقتول في سبيل الله وملاقى رسول الله ويجمع به في نعمة الله وأنه مكلمه ومحدثه . فإذا حصل لرجل مثل هذا اليقين فما الذي يمنعه من استقبال الموت وما الذي يحول بينه وبين الشهادة ؟ إن أكبر إقلاب وقع في تاريخ هذه الأمة هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة واستولت على حياة الأمة وذلك من عهد بعيد في التاريخ والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هذه الصورة الإسلامية كمجدار ينصبه الفلاح في حقله كيلا يحل فيه الطير والوحش ، ولا تزال الطيور والوحش تظن أنه إنسان أو حارس فلا تقربه حتى يتشجع غراب ذكي أو حيوان جرىء فيجد أنه ليس بشيء ، هنا لك تدخل الطيور والوحش في هذا الحقل وتعيث فيه وتتلق زرعته ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرصت صورة الاسلام مدة طويلة جدا ، فلم تجزى عليهم أهم العالم ولم يدر بخلد أحد أن يتمتع بهذا الشبح الخيف ويتحققه ، ولكن حتى متى ؟ لما أغار التار على بغداد انتفض المسلمون وظهر إفلاسهم في الروح والقوة المعنوية من ذلك الحين أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظ عليهم وتذود عنهم المكروه وتدفع عنهم غارات الاعم ، فان الصورة لا تقوم إلا على الجهل والغرور فاذا انكشف الغطاء وزاح الستار بين الصبح لذي عينين .

وإن ما نرى ونقرأ في تاريخ الاسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم في ميادين القتال إن كل ذلك أخبار انخزال الصورة وفضيختها لا غير وقد فضحتنا الصورة في كل معركة وحرب ومقاومة واصطدام . . ولكن الذنب علينا لأننا حملنا عبء الحقيقة على ظهر الصورة فلم تستطع حمله ولم تمسكه وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة فخيبت رجاءنا وكذبت أمانتنا وخدلتنا في الميدان .

تكرر الصراع بين صورة الاسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفي كل مرة

تتخذل وتهزم الصورة ويعتقد الناس انه هزيمة الاسلام وخذلانه وبذلك هان الاسلام في عيون الناس وزالت مهابته عن القلوب ، ولا يدري الناس أن حقيقة الاسلام لم تتقدم إلى ساحة الحرب منذ زمن طويل ولم تنازل امم العالم ، وان الذي يبرز في الميدان هو صورة الاسلام لاحقيقته ، وخلق بالصورة ان تهزم وتضعحل أمام الواقع والامر الجذ .

هاجت بعض الدول الاوربيه في الحرب الاولى تركيا الاسلاميه تركيا التي هارعت أوروبا كلها وهزمت درها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا في هذه المرة حاملة لصورة شاحبة للاسلام وقد فقدت شيئا كثيرا من حقيقة الايمان ففشلت في المقارعة وفقدت كثيرا من ممتلكاتها .

واجتمع سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية في فلسطين ، وكانت هذه الدول العربية علية الروح وقد اطلقت المادية الاوربية جرة القلوب وشعلة الجهاد في سبيل الله وحيث إليها الحياة والذات ثم انها تتخلف تخلفا كبيرا في المعدات الحربية والتنظيمات العصرية ، فكانت الحرب بين العرب المسلمين واليهود الصهيونيين صراعا بين صورة الاسلام وحقيقة القوة والتنظيم والخمسة فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كل صراع بين الصورة والقوة .

إن الصورة لها منزلة ومكانة عند الله تعالى ، لأنه قد عاشت فيها الحقيقة قرونا طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه ، وكذلك نعرف لها الفضل ، لأن الانتقال من صورة الاسلام إلى حقيقة الايمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته إلى حقيقة الايمان والاسلام . فلنحافظ على هذه الصورة ولتسك بها ، ولكن لا ينبغي أن نقنع بها ونستهين بالحقيقة والروح .

يا أبناء الاسلام ! إن وعد الله من النصر والفتح في الدنيا والنجاة والغفران في الآخرة كل ذلك محصور في حقيقة الاسلام وذلك قوله تعالى : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، لاشك فإن الخطاب في هذه الآية للمسلمين ومع ذلك اشترط الايمان للعزة في الارض والعلو والشوكة ، وقال في

موضع آخر : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد »
وقال أيضا : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض
كما استخلف الذين من قبلهم ولنمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من
من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك
فإولئك هم الفاسقون ، ورغم أن جميع تلك الوعود كانت على أساس الإيمان
والاعمال الصالحة اشترط أن يكون في المسلمين حقيقة الإيمان والتوحيد .

إن أكبر مهمة دينية في هذا العصر وأعظم خدمة وجبها للامة الاسلامية
هي دعوة السواد الأعظم للامة واغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة
الاسلام إلى حقيقة الاسلام فتمثل هذا فليعمل العاملون ويبدلوا جهودهم ومسااعهم
في بث روح الاسلام في جسم العالم الاسلامي ولا يدخروا في ذلك وسعا فبذلك
يتحول شأن هذه الامة وفي نتيجته شأن العالم بأسره فان شأن العالم تبع لشأن
هذه الامة وشأن الامة تبع لحقيقة الاسلام ، فاذا زالت حقيقة الاسلام من
الامة المسلمة فمن يدعو العالم إلى حقيقة الاسلام ومن يفتح فيه الروح ؟ قال سيد
عيسى عليه الصلاة والسلام لأصحابه ، أتم ملح الأرض فاذا زالت ملوحة
الملح فاذا يملح الطعام ؟ ،

قد أصبحت حياتنا اليوم جسداً بلا روح لأن السواد الأعظم للامة مجرد عن
الروح فارغ عن الحقيقة فكيف يعود الروح والحقيقة في الحياة الانسانية
مرة أخرى ؟

إن في هذا العالم بما لا تزال فارغة عن الحقيقة والروح من أقدم العصور
إلى يومنا هذا ولم يبق فيها إلا عدة معتقدات مرسومة وبضع صور حقيرة مجرد
عن الروح وانتهت حياتها الدينية والروحية الحقيقية من جديد ، حتى أن إنشاء
أمة بأسرها أبسر من إصلاح هذه الأمم وتجديد حياتها الدينية والخلقية والذين
نهضوا لأصلاحها وبدلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل قد أخفقوا ولم يفلحوا
في مهمتهم رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التي حدثت في هذا العهد من الطبع
والنشر والتأليف والاذاعة والتعليم والتربية وطرق الدعاية والتأثير وذلك لأن

عروة دينها قد انفصلت انفصاماً تاماً ، وانقطعت علاقتها عن منبع الحياة الدينية والحقيقية والروحية .

أما الأمة الإسلامية فلا تزال - على علاقتها وضعفها - متمسكة - استمسكا كما ما بعروة الدين وهي الإيمان بألفه والرسول واليقين بالدار الآخرة والحساب لم تتركها تبته ولم تنقطع عنها انقطاع الأمم الأخرى بل إن إيمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يزدى بإيمان كثير من خواص الأمم الأخرى وعليتهم ويفوقه متانة ورسوخاً وحاسة ، ثم إن كتابها لا يزال في يدها لم يتناوله التحريف ولم يبعث به العابثون كما فعلوا بالصحف الأولى ولا تزال سورة الرسول واسوته الحسنة بمثابة يدها ، فالدعوة إلى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ؛ وجرة الإيمان سريعة الاتقاد والشقة بين الصورة والحقيقة قصيرة ، والفتنة بينها الدعوة إلى تجديد الإيمان والرجوع إلى الدين والتشيع بروحه والتحلي بحقيقته .

لست قانظاً من ظهور حقيقة الإسلام في هذا العصر ، ولا تصدق أبداً بأن الزمان قد تغير والمسلمين قد ابتعدوا جداً عن روح الإسلام فلا أمل في حقيقة الإسلام وغلبتها من جديد ، أظنوا إلى ورائكم ترون جزر حقيقة الإسلام قائمة منتشرة في لجر التاريخ ، وإن الحقيقة لم تزال تظفر كلما رسبت وتظهر كلما اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الإسلام وتجلت في ناحية من نواحي العالم الإسلامي أو عصر من عصور التاريخ الإسلامي غلبت وانتصرت وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم وكادت الأحوال والأمور أن تعود إلى ما كانت عليه في الماضي السعيد وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الأول ، وإن حقيقة الإسلام في هذا العصر إذا ظهرت وتمثلت في جماعة تستطيع أن تذلل كل عقبة وتهزم كل قوة وتناقى بجانب وآيات من الإيمان والجماعة والابتناء يعجز الناس عن تحليلها . كما عجزوا من قبل عن تحليل حوادث الفتح الإسلامي وأخبار القرن الأول .